القصد البلاغي في الخطاب القرآني
سورة البلد أنموذجاً

Rhetorical intent in Quranic discourse

Surah Al-Balad is an example

أ.م.د . شامل عبيد درع

A.M.D. Shamil Obaid Dara

كلية العلوم الإسلامية – جامعة الفلوجة

University of Fallujah – College of Islamic Sciences

الملخص

تعمقت بالدراسة القرآنية من حيث التطرق الى القصد البلاغي في الخطاب القرآني ونمطية الإجراءات التي من شأنها بيان الأسلوب القرآنية في توصيل الفكرة للمتلقي عن طريق أساليب الدلالة النحوية من (استفهام، وتعجب، واستنكار، واستطراد، وتهكم ... وما الى ذلك)، مضافًا للقصدية البلاغية من الأخبار الطلبية وغير الطلبية، والتكرار، والتجانس، والمطابقة، والتي احققت في سورة البلد .

الكلمات المفتاحية: سورة البلد، القصد، البلاغي، الخطاب القرآني، التركيب، التكرير .

Abstract

I delved into the Qur'anic study in depth in terms of addressing the rhetorical intent in the Qur'anic discourse and the typicality of procedures that would clarify the Qur'anic method in conveying the idea to the recipient through methods of grammatical significance such as (question، exclamation، denunciation، digression، sarcasm... and so on)، in addition to intentionality. Rhetorical features of ordered and non-ordered news، repetition، homogeneity، and conformity، which were achieved in Surat Al-Balad.

Keywords: Surah Al-Balad، intent، rhetoric، Quranic discourse، composition، refining.

المقدمة

الحمدُ للهِ والصلاة والسلام على إمام الموحدين محمد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين..

أما بعد:

البحث في كتاب الله تعالى يتنظم بمعرفة الإعجاز الرباني من حيث استعمال الآي القرآني في الدراسة البلاغية والدلالية معًا، وهذا ديدن القدماء من علمائنا التي كانت لهم صولات في القصد الرباني ومعرفة الأسلوب النصي عبر دراسة النص الذي أنزله الله تعالى على رسوله الكريم، ولا يقتصر الأمر على علماء التفسير ولكن نجد كل من البلاغيين واللغويين كانت لهم أراء مهمة في توجيه النص الإلهي، وبيان القصدية من التكليف .

وكان ما ذكرت واعزًا للدخول الى تلك الآراء عبر هذا البحث الموسوم: (القصد البلاغي في الخطاب القرآني سورة البلد أنموذجاً) وقد سعيت بتوثيق نصوص العلماء في آيات السورة المباركة، ومن ثم الشروع بالتحليل البلاغي والدلالي للتحقق من تلك القصدية التي من شروطها تفكيك النص لتحقيق المطلوب من هذا الجهد .

فانتظم البحث بمحتوى التمهيد الذي تحدثت فيه عمّا يدور حول السورة من أسباب النزول وسبب النزول مع بيان القصد البلاغي، والمحتوى الثاني تضمن تسع عشرة مسألة بحسب الآيات المباركات في السورة الشريفة، ومن ثم أنهيت البحث بخلاصة وقائمة بالمصادر والمراجع .

محتوى التمهيد
سورة البلد والقصد البلاغي

أولًا: حول السورة :

سورة البلد هي السورة التسعون في النزول، وأما ترتيب النزول فمختلف فيه فقيل: السورة الخامسة والثلاثون نزلت بعد سورة (ق)، وقبل سورة الطارق [1] . وقال السيوطي ن(٩١١ه): (مَدَنِيَّةٌ إِلَّا أَرْبَعَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِهَا مكية) [2] .

(١) ينظر: علوم القرآن الكريم (نور الدين عتر): ٤٢ .
(٢) الاتقان في علوم القرآن (السيوطي): ١/ ٧٦ .

أما موضوعها فيدور حول المكابدة في طريق الخير أو الشر، ابن عاشور بقوله: (وجملة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ جواب القسم، وهو الغرض من السورة) [١].وقد وقعت مناسبتها لما ختمت سورة الفجر بذكر نهاية العمل والجد (الجنة) ناسب أن تبدأ سورة البلد بما يدل على تعب الإنسان، وأنّ أمامه طريقان أحدهما يوصل إلى الجنة المذكورة في سورة الفجر، وآخر يوصل إلى النار.

ووجه آخر في المناسبة أشار إليه البقاعي مفاده أن سورة الفجر لما ختمت بذكر أفضل الأماكن العلوية مضافة إلى الله (الجنة) في قوله تعالى: ﴿جَنَّتِي﴾ افتتحت سورة البلد بالإقسام بأفضل الأماكن الأرضية مكة، ولما ذكرت في آخر الفجر أشرف النفوس وهي المطمئنة، ذكرت في أول البلد أشرف الأنفس المطمئنة وهي نفس محمد ﷺ [٢].

وفي مناسبة المطلع تبدأ السورة بالقسم بالبلد الحرام، ويحله للمصطفى ﷺ، أو بحلوله فيه، وبأصل الإنسان من والد ومولود على خلق الإنسان في كبد وعناء، وختمت السورة ببعض صور ذلك الكبد والعناء (اليتيم والمسكين)، ومالهم من حق الصبر عليهم، والرحمة لهم، كما ختمت بأشد صور المكابدة في الآخرة بالتعذيب في النار.

وقد يكون من المناسبة أن السورة افتتحت بذكر البلد المبارك المشعر بالخير والفسحة وختمت بالمكان الضيق المحرق في آخر السورة، وسنوضح ذلك في الكلام عن آخر السورة بمشيئة الله.

ثانيًا: القصد البلاغي:

القصد في اللغة هو: استقامة الطريقة، وقَصَدَ يقصِدُ قَصْداً فهو قاصد[٣] . وقال الجوهري ت (**٣٩٣**هـ) هو: «إتيان الشيء . تقول قَصَدْتُهُ، وقَصَدْتُ له، وقَصَدْتُ إليه بمعنًى. وقَصَدْتُ قَصْدَهُ: نحوْت نحوه» [٤]

وأما صورة القصد البلاغي تتجسد في نمط التصوير الفني ؛ لأن القصد هو البلاغة ذاتها بصورتها المتحققة عبر معنى: « القصد وهو الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام وكلّ نوع منه ؛ ولكلّ واحد منهما موضع؛ فالحاجة إلى الإيجاز فى موضعه كالحاجة إلى الإطناب فى مكانه؛ فمن أزال التدبير في

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٦٧ .
(٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي:٩/ ٤٢٥ .
(٣) ينظر: العين (الفراهيدي): ٥/ ٥٤ (قصد) .
(٤) الصحاح تاج العربية (الجوهري): ٢/ ٥٢٤ (قصد)

ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ» [١] . وبالمقابل أن البلاغة :» الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل» [٢] .

وآليات القصد البلاغي تكمن بمحتواها العام في إصابة النطق الجيد بأقرب طرق الإفهام مع حسن الغرض، وليس أقرب طرق الإفهام تقليل الحروف واختصار المراد؛ قد يكون هذا، ولكن أقرب الطرق في الإفهام أن تكون الغاية مثالاً للعقل، ثم يكون المعنى مسوقاً إليها، واللفظ متسقاً عليها، فهم السامع أو قصر. ثم ليس هذا المعنى مقصوراً على العربية، بل هو شائع في النفوس، مستمد من العقول[٣] . ومن ذلك نفهم أن طريقة الفهم عند القصد ليس بتلخيص المعنى، وإنما بإجادة المعنى كثرت الحروف أو قلت، وفكرة التناسق القائمة على علاقة اللفظ بالمعنى وتوصيله للمتلقي من دون تكلف . وتُعدّ السمة البارزة للإعجاز الرباني في كتاب الله تعالى عبر ما سنبينه لاحقًا من سياق صورة (البلد) على هيئة مسائل لبيان القصد البلاغي والدلالي من النص الشريف .

محتوى الدلالة والقصد
نظرة تفسيرية تحليلية للدلالة البلاغية في سورة (البلد)

المسألة الأولى: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾

قصدية السورة :(ابتدأت السورة بالقسم تشويقاً لما يرد بعده، وأطيلت جملة القسم زيادة في التشويق) [٤]. ونلحظ نفي القسم ب﴿لا﴾ أسلوب دارج في القرآن، يدل على عظم القسم بالمقسم به، حتى لكأنه قيل: لا أقسم إن أقسمت إلا بالبلد، وقصدية ذكر مادة القسم في هذه الأسلوب خصوصا ﴿أُقْسِمُ﴾ تدل على الاهتمام بأمر القسم بذكر مادته نصاً، بخلاف غيره من الأساليب فإن أداة القسم هي التي تُذكر غالبا، وسبب مجيء الفعل بالمضارع ﴿أُقْسِمُ﴾ يدل على تجدد القسم واستمراريته.

ومضافًا لذلك إفراد الضمير الدال عليه سبحانه في قوله: ﴿أُقْسِمُ﴾ دون (نقسم) كما هو معتاد، قد يكون لأن القسم يدل على تعظيم المُقسم به والثناء عليه، ومدحه، وللتدليل على عظمته سبحانه جيء بضمير الواحد لبيان أنه إذا ذُكر مع المعظمات من المخلوقات فإنه يكفي ذكر ضميره بالواحد، فكيف لو

(١) الصناعتين (العسكري): ١٩٠ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) ينظر: البصائر والذخائر (التوحيدي): ٢/٦٦ .
(٤) انظر: نظم الدرر (البقاعي): ٩/ ٤٢٥ .

ذكر بالجمع.

وأما ذكر اسم الإشارة والتعريف به ﴿بِهَذَا﴾ للتحديد الدقيق؛ حتى لا ينصرف الفهم إلى غير المشار إليه، وهذا يدل على عظم شأن البلد المشار إليه، زيادة على ما في ذلك من الإشارة (إلى حاضر في أذهان السامعين كأنهم يرونه؛ لأن رؤيته متكررة لهم وهو بلد مكة، ومثله ما في قوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾[1] وفائدة الإتيان باسم الإشارة تمييز المقسم به أكْمَلَ تمييز لقصد التنويه به)[2].

وتعريف البلد بـ(ال) التعريف لبيان أنه معروف في الذهن عند الذكر، ولن ينصرف الذهن إلى غيره، وهو مكة.

كما أن القسم بمكة بقصدية شرفها ورفعتها ؛ ذلك أنها (لما جمعت من الشرفين، شرفها بإضافتها إلى الله تعالى [بيت الله بلد الله الحرام]، وشرفها بحضور رسول الله ﷺ وإقامته فيها، فصارت أهلاً لأن يقسم بها)[3]، وذكر مكة بهذا الوصف (البلد) دون العلمية (مكة، أو بكة) لما في لفظ (البلد) من دلالة السعة، يقول ابن عاشور: (والبلد: جانب من متسع من أرض عامرةً كانت كما هو الشائع أم غامرة)[4].

والسمة البلاغية (القسم بالبلدة مع أنها لا تدل على صفة من صفات الذات الإلهية ولا من صفات أفعاله كنايةٌ عن تعظيم الله تعالى إياه وتفضيله)[5].

المسألة الثانية : ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾

يطالعنا العطف بالواو دليل على المشاركة في الحكم مع ما سبق، وهو هنا القسم، وتعريف النبي ﷺ بضمير المخاطب ﴿وَأَنْتَ﴾ فيه تكريم له وتعظيم، ودلالة على القرب.مع أن ذكر حلوله ﷺ في ذلك البلد، فيه من تعظيم شأنه ﷺ ما لا يخفى، فإذا كان الله سبحانه يقسم بحلوله ﷺ في البلد المعظم، فماذا بعد هذا من التكريم والشرف والتعظيم؟، يقول ابن القيم: (إذا أريد المعنى الثاني المشتمل على رسوله وعبده، فهو خير البقاع، وقد اشتمل على خير العباد، فجعل بيته هدى للناس، ونبيه إماما وهاديا لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه، كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته، فمن اعتبر حال

(١) سورة النمل: الآية ٩١ .
(٢) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٦٥ .
(٣) تفسير البحر المحيط: ١٠/ ٤٨٢ . ونهاية الأرب في فنون الأدب: ١/ ٣٤٠ .
(٤) التحرير والتنوير:١٦/ ٢٦٥ .
(٥) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٦٥ .

بيته وحال نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية)[١]. ومجيء اللفظ بصيغة المصدر ﴿حِلٌّ﴾[٢] دون اسم الفاعل (حائل) لما في المصدر من المبالغة في الاتصاف بالصفة كما في استعمال رحيم بدل راحم المخصوص برب الجلالة [٣] لجريان الوصف ، وهذا المعنى هنا أولى من القول بـ (الحل) ضد الحرمة.

ومن ثم إعادة تعريف البلد بالإشارة و(ال) التعريف لبيان أن المذكور هنا هو عين المقسم به أولاً[٤]، ثم يفرض التكرار البلاغية قصدية الخطاب عبر (تكرير لفظ ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ إظهار في مقام الإضمار لقصد تجديد التعجيب، ولقصد تأكيد فتح ذلك البلد العزيز عليه، والشديد على المشركين أن يخرج عن حوزتهم)[٥].

المسألة الثالثة : ﴿وَوَالِدٌ وَمَا وَلَدَ﴾

وجاء العطف بالواو دليل على مشاركة الجملة في القسم السابق، والقسم بالوالد يدل على شرفه، وقدم لهذا السبب. ونلحظ تنكير كلمة (والد) (تنكير تعظيم إذ لا يحتمل غير ذلك في سياق القسم، فتعين أن يكون المراد والداً عظيماً، والراجح حمل والد على المعنى الحقيقي بقرينة قوله: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾[٦].

وقصدية (مجيء اسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ دون (مَن) مع أن (مَن) أكثرُ استعمالاً في إرادة العاقل، وهو مراد هنا، فعُدل عن (مَن)؛ لأن ﴿مَا﴾ أشدُّ إبهاماً، فأريد تفخيم أصحاب هذه الصلة فجيء لهم بالموصول الشديد الإبهام لإرادة التفخيم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾[٧]. يعني: مولوداً عجيب الشأن، ويوضِّح هذا أن ﴿مَا﴾ تستعمل نكرة تامة باتفاق، و(مَن) لا تستعمل نكرة تامة إلا عند الفارسي، ولأن قوة الإيهام في ﴿مَا﴾ أنسب بإرادة الجماعة دون واحد معين[٨].

والمتلقي يلحظ عطف المولود عليه لكونه ناتجا عنه، مرتبطا به، وتغيير النظم بقصدية ورود المولود بصيغة ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ دون (ووالد ومولود)؛ لما في الاسم الموصول (ما) من الشيوع، فيشمل كل مولود،

(١) التبيان في أقسام القرآن: ١/ ٢٤ .
(٢) جاء في المقاييس: (وحيٌّ حِلالٌ نازلون ... وحِلٌّ وحَلالٌ بمعنى)، مقاييس اللغة: ٢/ ١٦ .
(٣) ينظر: تحرير التحبير: ١٥٠ .
(٤) ينظر: لطائف الاشارات :٣/٧٢٩ .
(٥) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٦٦ .
(٦) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٦٦ .
(٧) سورة آل عمران: الآية ٣٦ .
(٨) جاء عند الزمخشري: (فإن قلت: لم نكر؟ قلت: للإبهام المستقل بالمدح والتعجب، فإن قلت: هلا قيل: ومن ولد؟ قلت: فيه ما في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي: بأي شيءٍ وضعت: يعني موضوعاً عجيب الشأن . ينظر: الكشاف: ٧/ ٢٩١.

وهذا أعظم في دلائل القدرة، إذ قد يوجد من المخلوقات من هو أعظم شأنا من طبيعة ولادة الإنسان، وفي هذا إشارة إلى أن الإقسام بكل واحد وكل مولود، وهذا أوسع من حصر في معين.

المسألة الرابعة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾

هذا جواب القسم، وهو المقسَم عليه، وهو خلق الإنسان في كبد، ولو بحثنا عن مناسبة القسم بالبلد، وحلِّ الرسول ﷺ فيه، والوالد والمولود، وبين المقسم عليه وهو خَلق الإنسان في كبد؛ نجد الرابط هو المشقة مع علو المكانة، وكأن في ذلك إشارة إلى ضرورة صيره ﷺ مع مكانته على مسؤولية الدعوة، يقول ابن القيم: (والمقصود أنه سبحانه أقسم في سورة البلد على حال الإنسان، وأقسم سبحانه بالبلد الأمين، وهو مكة أم القرى، ثم أقسم بالوالد وما ولد وهو آدم وذريته في قول جمهور المفسرين، وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان وأصل السكان فمرجع البلاد إلى مكة، ومرجع العباد إلى آدم)[1].

ومن ثم تأكيد الجواب بـ(اللام) فيه عناية بأمره، واهتمام بشأنه. وفي دخول (قد) على الفعل الماضي ﴿خَلَقْنَا﴾ تأكيد آخر.

ومن ثم ذكر مادة الخلق ﴿خَلَقْنَا﴾ للفت النظر إلى أن الصفة المذكورة هي من أصل تكوين الإنسان، أو أنها ملازمة له كملازمة ما هو مخلوق من هذا الإنسان، وقيل بل المراد المشرك خصوصا فهو في كبد بسبب حيرته وشركه، ومجيء الفعل بالماضي فيه تأكيد لمضمون الجملة، وبهذا اجتمع في الآية أربعة مؤكدات: القسم، واللام، وقد، والماضي. وكذلك مجيء الفاعل بضمير الجمع (نا)؛ لأن الخلق من الأمور العظيمة التي لا يقدر عليها إلا الله.

وجاء ذكر الإنسان بصيغة الإفراد دون الناس، ليكون أكثر شمولية؛ لأن (ال) فيه للجنس، ولما في الإفراد من الإشعار بالمسؤولية الفردية، ومنه أيضًا ذكر حرف الجر ﴿فِي﴾ للتدليل على الظرفية، والمراد بها هنا: تمكن الكبد من الإنسان وإحاطته به، حتى لكأنه ظرف لذلك الإنسان.

ومجيء معنى النصب والتعب بلفظ ﴿كَبَدٍ﴾ لما في هذه المادة (كبد) من معنى المعاناة والتعب، يقول ابن فارس: ((كبد) الكاف والباء والدال أصلٌ صحيح؛ يدلُّ على شِدّة في شيء وقُوّة من ذلك الكَبَد، وهي المشقة، يقال: لَقِيَ فلانٌ من هذا الأمر كَبَداً، أي: مشقة)[2]، وقيل المراد في كبد أي: في استقامة، وحسن خلق وقوة.

(١) التبيان في أقسام القرآن: ١/ ٢٤ .

(٢) مقاييس اللغة: ٥/ ١٢٤ .

كما نلحظ تتكبر كلمة ﴿كَبَدٍ﴾ تدل على تنوع هذا الكبد من جهة، وشموله من جهة أخرى، وهذا يعني أن لكل إنسان نصيبه من هذا الكَبد، تقييد خلق الإنسان بالجار والمجرور ﴿فِي كَبَدٍ﴾ للتدليل على أنه ملازم الخلقه.

المسألة الخامسة : ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾

بعد ذكر الإنسان وأنه مخلوق في كبد، ذُكِر ما يتعلق بصفة التكبر والتعاظم فيه؛ لأنه صارع وصبر على الشدائد، وقد يكون من مناسبة ذلك أنه لما ذكر خلق الإنسان في استقامة وقوة على المعنى الثاني ناسب أن يذكر ما يشعر بإعجابه بخلقه ذاك.

ومن ثم جاء الأسلوب بالاستفهام ﴿أَيَحْسَبُ﴾ ليكون أكثر تنبيهاً وتأثيرا، ثم ذكر مادة الحساب في (يحسب) تدل على إنكار شيء يظنه صحيحاً؛ لأنه من الحسبان بمعنى الظن، وهذا يشير إلى عدم صوابه فيما توهمه، وبالقابل نفى المقدرة عليه ﴿لَنْ﴾ لما فيها من الإشعار بالنفي في المستقبل، وليس شرطاً أن يكون ذلك أبديًّا.

والقصد في ذكر مادة القدرة ﴿يَقْدِرَ﴾؛ لأن ذلك هو ما يتناسب مع غروره وتكبّره، ومجيء حرف الجر (على) مناسب لفعل القدرة، لما فيه من دلالة الاستعلاء. ونرى مفردة ﴿أَحَدٌ﴾ أكثر شمولاً من (واحد)؛ لأنه لا يقدر عليه أحد سواه [1] .

وقد حاز تقديم الجار والمحرور ﴿عَلَيْهِ﴾ على الفاعل ﴿أَحَدٌ﴾ للإشارة إلى الرد على اعتقاد هذا الانسان المغرور بقوته، فـ (قدم الجار تأكيداً بما يفيد من الاهتمام بالإنسان فقال: ﴿عَلَيْهِ﴾، أي خاصة ﴿أَحَدٌ﴾ أي من أهل الأرض أو السماء)[2].

المسألة السادسة : ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لَبَدَا﴾

جرى النص على قوله بالفعل يقول فيه عناية بإظهار قوله؛ لأنه يوضح مكنون فؤاده، وقد فسر لنا هذا القول سر تكبره وتعاظمه، ألا وهو المال، كما إن إظهار القول يكمل نقائص هذا الإنسان، فقد (أعقبت مساوي نفسه بمدام أقواله، وهو التفخر الكاذب والتمدح بإتلاف المال في غير صلاح، وقد كان أهل الجاهلية يتبجحون بإتلاف المال، ويعدونه منقبة بذاته بقلة اكتراث صاحبه به، قال عنترة[3] :

وإِذَا سَكَرْتُ فإنَّني مُسْتَهــْلِكٌ ... مالي وعِرضي وافرٌ لم يُكْلَمِ

(١) ينظر زاد المسير في علم التفسير: ٤/ ٤٤٧ .
(٢) نظم الدرر للبقاعي: ٩/ ٤٢٦ .
(٣) ديوان عنترة بن أبي شداد: ٢٠٦ .

وَإِذَا صَحَوْتُ فَما أقصِّر عن نَدى ... وَكَما عَلِمْت شمائلي وتكَرُّمِي)[1].

كما نلحظ مجيء الفعل بصيغة المضارع ﴿يَقُولُ ﴾يُشعر باستمرار هذا الحال مع الإنسان، ما حصل له الثراء والمال، ومصداق ذلك قوله تعالى:﴿ كَلاَّ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾[2] .

وقصد التعبير بمادة الهلاك ﴿أَهْلَكْتُ﴾ لافت للنظر، وهو يُشعر بالإسراف الذي يمكن أن يوصف معه المنفق بالمُهلك، وفعله بالإهلاك، وهذا بدوره يُصوِّر حجم المال الهائل عند هذا الإنسان، إذ (علم أن مراد الإشارة إلى أن معه أضعاف ما أنفق من حيث إنه حقره بلفظ الإهلاك)[3].

وأيضًا مجيء الفعل بالماضي ﴿أَهْلَكْتُ﴾ للتدليل على أن هذا ديدنه من قبل، وأنه ليس جديداً أو حادثاً في حياته، ونسبة الإهلاك إليه كما يظهر من الضمير المتصل (التاء) في ﴿أَهْلَكْتُ﴾، يشعر باعتزازه بذلك، وقصده له، ومادة الإهلاك مستعملة عند العرب عنواناً للافراط في انفاق المال[4]، وهو مجال مدح عندهم كما تقدم.

وأما كون المهلك هو المال في قوله: ﴿مالاً﴾، فهذا أمر خارج عن المألوف؛ لأن المعتاد الحفاظ على المال، وهذا يؤازر افتخار هذا الإنسان بماله، وخدمته له. وتذكر كلمة ﴿مالاً﴾ للدلالة على التنوع والكثرة.

بحيث أن وصف المال بـ﴿لَبَدَا ﴾يؤيد ما سبق ذكره؛ لأنه يعني كثرته من حيث تراكم بعضه على بعض، يقول ابن عاشور: (و﴿لُبَدَا﴾ بضم اللام وفتح الموحدة في قراءة الجمهور، وهو جمع لُبدة، بضم اللام، وهي ما تلبد من صوف أو شعر، أي تجمّع والتحق بعضه ببعض)[5].

المسألة السابعة:﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾

القصد في إعادة الاستفهام وذكر مادة الحسبان يدل على إنكار اعتقاد آخر لهذا الإنسان؛ تسبب في تكبره، وتعاظمه، وانحرافه، (والاستفهام إنكار وتوبيخ، وهو كناية عن علم الله تعالى بدخيلته، وأن افتخاره بالكرم باطل)[6].

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٧٠ .
(٢) سورة العلق: الآية ٦- ٧ .
(٣) نظم الدرر للبقاعي: ٩/ ٤٢٧ .
(٤) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن (الثعالبي): ٢٠٨/١٠ .
(٥) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٧٠ .
(٦) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٧٠ .

كما أن تغاير أداة النفي بين الجملتين، فكانت (لن) مع القدرة، و﴿لَمْ﴾مع الرؤية، لأن المقصود مع القدرة إرادة بيان استمرارية اعتقاده ذلك في المستقبل لما هو من مظاهر القوة (المال) كما يظن، وأما الرؤية فإن المؤثر منها ما مضى، لذا جاءت ﴿لَمْ﴾التي تقلب المضارع للماضي، ولو قيل: لن يره أحد؛ لتغير المعنى، يقول ابن القيم: (وأتى ههنا بلم الدالة على المضي في مقابلة قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالاً لَبَدَا﴾ فإن ذلك في الماضي أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه)[1].

المسألة الثامنة :﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾

في هذا النص وجه الاستفهام لتقرير المعنى، وما سبق إنكار له، ومجيء النفي بـ(لم) ليتناسب مع نفيه الرؤية ﴿لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾، زيادة على دلالة ذلك على تقدم هذه النعمة لذلك الإنسان، وغفلته عنها.

وذكر الحمل دون الخلق ﴿نَجْعَلْ﴾، فما قال سبحانه (تخلق)؛ لأن الجعل يعني التحول والصيرورة، ويشعر بالمدة والزمن بخلاف الخلق، والإنسان كان دون (عينين) ثم شق الله سمعه وبصره حتى صار على النحو الذي هو عليه.

كما أن مجيء حرف الجر (اللام) في ﴿لَهُ﴾ يشعر بعظم المنَّة على هذا الإنسان، وصورة تقديم الجار والمجرور على المفعول ﴿عَيْنَيْنِ﴾يدل على العناية بأمر هذا الإنسان، وتكميل خلقه فقيل: (الاقتصار على العينين لأنهما أنفع المشاعر؛ ولأن المعلَّل إنكار ظنه إن لم يره أحد)[2].

وقد ذكر العدد بما يدل عليه المعدود ﴿عَيْنَيْنِ﴾لما فيه من إقامة الحجة على هذا المتباهي، فعين واحدة تكفي لطالب الحق، فكيف بعينين اثنتين[3] .

المسألة التاسعة: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾

النص على اللسان، وذكره بعد العينين؛ لأنه أداة التكلم، وبه يفصح الإنسان عن مراده، كما أنه أحد مظاهر القوة، ألا وهي القوة الكلامية في الشعر والخطب وغيرها، يقول ابن عاشور: (ذكر الشفتين مع اللسان؛ لأن الإبانة تحصل بهما معاً فلا ينطق اللسان بدون الشفتين، ولا تنطق الشفتان بدون اللسان)[4].

وجاء ذكر الشفتين بعد اللسان فيه لفت لعظم شأنهما مما لا ينتبه له مثل هذا الجاحد، فهما مساعدان في الكلام، مجملان للوجه، مساعدان في الأكل، فلو تأمل الإنسان فضل الله عليه بهما لعرف حقه وأدّاه،

(١) التبيان في أقسام القرآن: ١/ ٢٤ .
(٢) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٧١ .
(٣) ينظر: صيد الأفكار في الأدب والحكم والأمثال: ٤٥٥ .
(٤) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٧١ .

ويكفى في هذا أن يتخيل الإنسان نفسه دون شفتين، كيف سيكون حاله ؟!.

وقصدية الاستعمال في ذلك تكمن في (دقائق القرآن أنه لم يقتصر على اللسان ولا على الشفتين خلاف عادة كلام العرب أن يقتصروا عليه يقولون: ينطق بلسانٍ فصيح ويقولون: لم ينطق ببنت شفة، أو لم ينبس ببنت شفة؛ لأن المقام مقام استدلال، فجيء فيه بما له مزيد تصوير لخلق آلة النطق)[1].

المسألة العاشرة: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾

بعد ذكر عوامل المعرفة والهدى من العينين واللسان والشفتين، وما سبق من عامل المال، إذ أخذ بحقه، ذكر سبحانه أنه جلّت قدرته أوضح لهذا الإنسان طريق الخير وطريق الشر، وجعله يتحمل مسؤولية اختياره، يقول ابن عاشور: (أعقب ما به اكتساب العلم وما به الإبانة عن المعلومات، بما يرشد الفكرّ إلى النظر والبحث وذلك قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، فاستكمل الكلامُ أصول التعلُّم والتعليم فإن الإنسان خُلِقَ مُحِباً للمعرفة محباً للتعريف، فبمشاعر الإدراك يكتسب المشاهدات، وهي أصول المعلومات اليقينية، وبالنطق يفيد ما يَعْلَمه لغيره، وبالهدى إلى الخير والشر يميز بين معلوماته ويمحصها)[2].

ومن ثم ذكر مادة الهدى ﴿وَهَدَيْنَاهُ﴾ فيه إشارة أنه لولا هداية الله له ما اهتدى، فهذهِ نعمة، أخرى، بل من أجلُّ النعم . كما أن مجيء الفعل بالماضي ﴿هَدَيْنَاهُ﴾ للدلالة على أن هداية لهذا الإنسان سابقة فهي أمر فطري، فطر الله عليه الإنسان[3].

وقيل: مجيء الفاعل بضمير الجمع (نا) ﴿فَهَدَيْنَاهُ﴾ يدل على التعظيم؛ لأن الهداية أمر عظيم جليل، وذكر الإنسان بضمائر الغيبة في كل ما سبق، وفي قوله: ﴿فَهَدَيْنَاهُ﴾ دليل أن المقصود هو الإنسان السابق ذكره ووصفه[4] .

ثم ذكر الخير والشر بوصف ﴿النَّجْدَيْنِ﴾ لما في كلمة (نجد) من الظهور؛ لأن النجد هو المرتفع من الأرض، فدلّ ذلك على أن الخير والشر من الوضوح إذ لا يزل ولا يضل عنهما أحد، وقد يراد أن الارتفاع يدل على الصعوبة والمشقة، يقول البقاعي عن النجد: (وهو طريق في ارتفاع عبر عن الخير والشر به لإعلائهما الإنسان عن رتبة باقي الحيوان، ولأن الإنسان لا يختار واحدة منهما إلا بمعاناة وتكلف كمعاناة

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٧١ .
(٢) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٧١ .
(٣) ينظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق التنزيل: ٢ / ٦٥ .
(٤) ينظر: مقامات الزمخشري: ١٥١ .

من يصعد في عقبة)[1]، ويقول ابن عاشور: واستعير النجدان للخير والشر، وجُعِلا نجدين لصعوبة اتباع أحدهما وهو الخير، فغلِّب على الطريقين، أو لأن كل واحد صعب باعتبار، فطريق الخير صعوبته في سلوكه، وطريق الشر صعوبته في عواقبه، ولذلك عبر عنه بعد هذا بـ﴿الْعَقَبَةَ﴾[2].

وفي مجيء الفعل مع النعم الظاهرة (العينين، واللسان، والشفتين) بالمضارع ﴿نَجْعَلْ﴾، بينما مع الهداية جاء الماضي (وهديناه)، ذلك أن الله تعالى لما كان له (على كل أحد في كل لمحة منّة جديدة في إبقاء هذه الآلات الثلاث عبر فيها بالمضارع، ولما كانت النعمة في العقل إنما هي بهبته أولاً ثم بحمله به على الخير ثانياً، وكان أمره خفياً .... اختير له لفظ الماضي لذلك تحقيقاً لكونه، وجعله غريزة لا تتحول، وطبيعة لا تتبدل)[3]، ولما ذكرناه من تقدم الهداية لكونها مما فطر الله عليه الإنسان إذا سلم من الصوارف، فكل مولود يولد على الفطرة.

المسألة الحادية عشر : ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾

استعمال الفاء للدلالة على ترتب هذه الجملة على ما قبلها، وهو هداية الإنسان للنجدين والمعنى أنه رغم تلك الهداية، وما أعطاه ربه من سبل المعرفة والقوة، لم يقتحم العقبة الموصلة إلى الخير، أو يراد الإنكار على من أهلك ماله لبداً؛ لماذا لم يقتحم العقبة ليهلكه في سُبل الخير، والتعبير بالاقتحام لما فيه من دلالة القوة والعسر، والمشقة، والسرعة، يقول الألوسي: (الاقتحام الدخول بسرعة وضغط وشدة، ويقال: قحم في الأمر قحوماً رمى نفسه فيه من غير روية)[4]، وأما صيغة الافتعال ﴿اقْتَحَمَ﴾ فيها دلالة المشقة وبذل الجهد[5]، وذلك كون المُقتَحَم هو ﴿الْعَقَبَةَ ﴾يؤيد وجود المشقة وشدة المعالجة، (وأطلق ﴿الْعَقَبَةُ ﴾ على العمل الموصل للخير؛ لأن عقبة النجد أعلى موضع فيه، ولكل نجد عقبة ينتهي بها)[6].

(١) نظم الدرر للبقاعي: ٩/ ٤٢٩.
(٢) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٧١ .
(٣) نظم الدرر للبقاعي: ٩/ ٤٢٦ .
(٤) تفسير الألوسي،: ٢٢/ ٤٥٠ .
(٥) انظر: التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٧٣ .
(٦) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٧٣ .

وقد أفاد نفي الاقتحام أنه عدل عن الاهتداء إيثاراً للعاجل على الآجل ولو عزم وصَبر لاقتحم العقبة [١]. فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ :

لأن مجيء هذه الجملة على هذا النسق من السؤال (للتنويه بها، وأنها لأهميتها يَسأل عنها المخاطب هل أعلَمَهُ مُعْلِم ما هي؟، أي: لم يقتحم العقبة في حال جَدارتها بأن تُقتحم، وهذا التنويه يفيد التشويق إلى معرفة المراد من العقبة)[٢].

وبرزت قصدية التنويع في تكرير لفظة ﴿الْعَقَبَةَ﴾إظهار في مقام الإضمار، يراد منه تهويل وتعظيم شأن العقبة، وأنها أمر عزيز يَحتاج إلى من يُعلمك إياه.

المسألة الثانية عشر:﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾

في هذا الموضع حذف المبتدأ هنا الذي تقديره (هي) لبيان انصراف الاهتمام إلى الخبر؛ لأنه موضع العبرة، وذكر مادة الفك وفك لما فيها من دلالة تخليص شيء من شيء، يقول ابن فارس في مقاييسه: (الفاء والكاف أصلٌ صحيحٌ يدل على تفتُّحٍ وانفراج)[٣]، ويقول ابن عاشور: (وأطلق الفك على تخليص المأخوذ في أسْرٍ أو مِلْك، لمشابهة تخليص الأمر العسير بالترع من يد القابض الممتنع)[٤].

كما نلحظ أن قراءة (فكَّ قبةً) بالفعل تتناسب مع العطف على الفعل (اقتحم)، فكأنه قيل: فلا اقتحم ولا فك رقبة، وقراءة المصدر (فكُّ رقبةٍ) تتناسب مع لفظ (العقبة)[٥]، كون المفكوك ﴿رَقَبَةٍ﴾ لما فيها من

(١) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٧٣ .

(٢) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٧٤

(٣) مقاييس اللغة: ٤/ ٣٤٦ .

(٤) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٧٤ .

(٥) وأوضح ذلك مفصلاً ابن القيم: (وقراءة من قرأ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ بالفعل كأنها أرجح من قراءة من قرأها بالمصدر؛ لأن قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ على حد قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾، ونظائره تعظيماً لشأن العقبة وتفخيماً لأمرها وهي جملة اعتراض بين المفسر والمفسر فإن قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، تفسير لاقتحام العقبة مكان شاق كؤود يقتحمه الناس حتى يصلوا إلى الجنة، واقتحامه بفعل هذه الأمور فمن فعلها فقد اقتحم العقبة ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا عطف على قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، والأحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التي هي تفسير لما ذكر أولاً، وأيضاً فإن من قرأها بالمصدر المضاف فلا بد له من تقدير وهو: ما إدراك ما اقتحام العقبة؟ واقتحامها فك رقبة وأيضاً فمن قرأها بالفعل فقد طابق بين المفسر، وما فسره، ومن قرأها بالمصدر فقد طابق بين المفسر، وبعض ما فسره، فإن التفسيران كان لقوله: (اقتحم) طابقه بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وما بعده دون ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وما يليه وإن كان لقوله (العقبة) طابقه ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ﴾ دون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وما بعده، وإن كانت المطابقة حاصلة معنى فحصولها لفظاً ومعنى

عظم الأجر؛ لأن المراد بها الإنسان، والمقصود تخليصه من أسر أو رق أو غير ذلك.

وذكر الرقبة دون الإنسان، فيه إطلاق للجزء وإرادة الكل، وهذا يدل على أهمية ذلك الجزء، حتى لكأن الكل ليس له قيمة دونه، ومعلوم أن حياة الجسد بدون الرقبة غير ممكنة؛ لأنها تربط الرأس بالجسد(١) .

وقد ذكر الرقبة دون غيرها من أجزاء الجسد؛ لأن ربطها المقابل لفكها هو دلالة الذلة والأسر، والقيد والملك، ولا يكون ذلك بكل هذه المعاني إلا مع الرقبة، يقول ابن عاشور: (وإيثار لفظ الرقبة هنا لأن المراد ذات الأسير أو العبد، وأول ما يخطر بذهن الناظر لواحد من هؤلاء هو رقبته؛ لأنه في الغالب يوثق من رقبته)(٢).

المسألة الثالثة عشر : ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾

العطف بـ﴿أَوْ﴾ يوحي بأن اقتحام العقبة يكون بأحد المذكورين، ولا يعني هذا امتناع الجمع بينهما. وذكر الإطعام في مقابل الفك يدل على فضيلته، وعظم أجره.

ثم قصد تحديد زمن الإطعام في ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾يوضح عظم الأجر كلما عظمت الحاجة، يقول ابن عاشور: (ووجه تخصيص اليوم ذي المسغبة بالإطعام فيه أن الناس في زمن المجاعة يشتد شحهم بالمال خشية امتداد زمن المجاعة، والاحتياج إلى الأقوات، فالإطعام في ذلك الزمن أفضل، وهو العقبة، ودون العقبة مصاعد متفاوتة)(٣).

وقد جاء وصف اليوم بـ﴿ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ للإشعار بشدة الحاجة، (وإضافة ﴿ذِي﴾ إلى ﴿مَسْغَبَةٍ﴾ تفيد اختصاص ذلك اليوم بالمسغبة، أي: يوم مجاعة، وذلك زمن البَرد وزمن القحط)(٤)، وأما القصد من المسغبة دون الجوع مثلاً، لما في المسغبة من دلالة التعب مع الجوع، (قال بعض أهل اللغة: لا يكون الشَّغَب إلا الجوعَ مع التعب)(٥).

أتم وأحسن) ؛ أنظر: التبيان في أقسام: ١/ ٢٤ .

(١) ينظر: البلاغة العربية (حبنكة): 2/279 .

(٢) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٧٤ .

(٣) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٧٤ .

(٤) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٧٤ .

(٥) مقاييس اللغة: ٣/ ٥٨ .

المسألة الرابعة عشر : ﴿يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾

وجاء السياق بنصب كلمة ﴿يَتِيماً﴾ على أنها مفعول للمصدر ﴿إِطْعَامٌ﴾، كأنه قيل: يطعم يتيماً في يوم ذي مسغبة[١]، وكذلك ما بعده، وأما تقديم ذكر اليتيم أولاً في الإطعام مع أ أن المعتاد أن المسكين في هذا الجانب أظهر، وأن اليتيم قد لا يكون محتاجاً، يجيب عنه ابن عاشور بقول: (ووجه تخصيصه بالإطعام أنه مظنة قلة الشبع لصغر سنه، وضعف عمله، وفقد من يعوله، ولحيائه من التعرض لطلب ما يحتاجه، فلذلك رغب في إطعامه وإن لم يصل حد المسكنة والفقر)[٢]. كما وصفه بـ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾(أي: مقربة من المطعم؛ لأن هذا الوصف يؤكد إطعامه؛ لأن في كونه يتيماً إغاثة له بالإطعام، وفي كونه ذَا مقربة صلة للرحم)[٣].

المسألة الخامسة عشر : ﴿أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾

يطالعنا العطف بـ﴿أَوْ ﴾لبيان التقسيم والتنوع في المستحق للإطعام والتصاقه بالتراب [٤] ، وكان ذكر المسكين بعد اليتيم كثير في القرآن، والمراد به الفقير المحتاج، وهو مأخوذ من المسكنة المشعرة بذله وضعفه[٥].

وقد وصفه بـ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ لبيان علاقته بالتراب، وكأن التراب مصاحبٌ له، أو هو مصاحب للتراب، (أي: لم يكن له ما يفترشه على الأرض، وهو في الأصل كناية عن العُروِّ من الثياب التي تحول بين الجسد والأرض عند الجلوس والاضطجاع، وقريب منه قولهم في الدعاء تَربت يمينك، وتربت يداك)[٦].

فكان ما يدل على الإطعام وفك الرقبة بعد ما يدل على الحث على اقتحام العقبة إشارة، إلا أن من أعظم العقبات حُب المال والبخل به، لذا جعلت صورة الاهتداء إلى نجد الخير واجتياز عقبته هي إنفاق المال في وجوه الخير، وهذا المعنى مناسب لما ذكر في الحديث: (عن أم الدرداء عن أبي الدرداء – رضي الله عنهما – قال: قلت له: ما لك لا تطلب ما يطلب فلان وفلان قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن وراءكم عقبة كؤودا لا يجوزها المثقلون فأنا أحب أن أتخفف لتلك العقبة)[٧]، وفي هذا من الحث على

(١) ينظر: بحر العلوم (السمرقندي): ٣/ ٥٨٤ .
(٢) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٧٥ .
(٣) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٧٥ .
(٤) ينظر: الحور العين: ١٩.
(٥) ينظر: تفسير الطبري: ٢/ ٢٩٣.
(٦) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٧٥ .
(٧) رواه الطبراني بإسناد صحيح، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: ٣/ ١٣٠ (صحيح) .

الإنفاق مالا يخفى.

المسألة السادسة عشر: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾

في بداية النص جاء العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ يُشعر بالتراخي الرتبي[1]، والمراد أن مرتبة الإيمان والتواصي بالصبر والمرحمة أعظم رُتبةً من فك الرقبة والإطعام.

كما نلحظ (في فعل ﴿كَانَ﴾ إشعار بأن إيمانه سابق على اقتحام العقبة المطلوبة فيه بطريقة التوبيخ على انتفائها عنه)[2]، وقد يشير فعل الكون ﴿كَانَ﴾ إلى معنى (أصبح)، أي: كان بعد أن لم يكن، فيكون في ذلك مدّح لحاله ذاك أذا آمن بعد ما كان يعمل تلك الأعمال الخيرة كحال ابن جدعان[3]، وبهذا تكون ثم للتراخي الزمني.

وجاء تعريف المؤمنين بالموصول ﴿الَّذِينَ﴾ للتوصل لمدحهم بالإيمان وما بعده وآمنوا ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، وجاءت صيغة التفاعل ﴿وَتَوَاصَوْا﴾للتدليل على تبادل ذلك بينهم، مع ما في لفظة التواصي من النصح بالخير، وقيل :(خص بالذكر من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصبر وتواصيهم بالمرحمة؛ لأن ذلك أشرف صفاتهم بعد الإيمان، فإن الصبر ملاك الأعمال الصالحة كلها، لأنها لا تخلو من كبح الشّهوة النفسانية، وذلك من الصبر)[4]، ويقول ابن القيم في فضائل الصبر: (أنه سبحانه خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة، الذين قامت بهم هاتان الخصلتان، ووصوا بهما غيرهم؛ فقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، وهذا حصر الأصحاب الميمنة فيمن قام به هذان الوصفان والناس بالنسبة إليهما أربعة أقسام، هؤلاء خير الاقسام، وشرهم من لا صبر له ولا رحمة فيه، ويليه من له صبر ولا رحمة عنده، ويليه القسم الرابع وهو من له رحمة ورقة ولكن لا صبر له)[5]، والمعنى أن التقسيم للوصف والتفريق بين الجيد والسيء في قصدية الاستعمال لكل واحد منهما في موضعه .

(١) ينظر: اللمحة في شرح الملحة: ٢/ ٦٩٣.
(٢) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٧٦ .
(٣) عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: (قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافِعُهُ؟، قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين») رواه مسلم في صحيحه: ٢/ ١٤٥ برقم (٨٧٥).
(٤) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٧٧ .
(٥) عدة الصابرين: ١/ ٦٠ .

المسألة السابعة عشر :﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾

برزت قصدية الإشارة إليهم بالبعيد ﴿أُولَئِكَ﴾ لما فيه من رفعة لمكانتهم، وإبراز لشأنهم، وتنويه بمنزلتهم، كما أن فيه تمييزاً لهم (أكمل تمييز لإحضارهم بصفاتهم في ذهن السامع، مع ما في اسم الإشارة من إرادة التنويه والتعظيم)[1].

وعبّر بالصحبة ﴿أَصْحَابُ﴾ للإشعار بكثرة مصاحبتهم للميمنة، أو ملازمتهم لها، وذلك كناية عن أنهم لا يقهرون ولا يغلبون [2].

وقوله: ﴿الْمَيْمَنَةِ﴾ المراد بها: جهة اليمين، (ولما كانت جهة اليمين جهة مكرمة تعارفوا الجلوس على اليمين في المجامع كرامةً للجالس، وجعلوا ضدهم بعكس ذلك، وقد أبطله الإسلام فكان الناس يجلسون حين انتهى بهم المجلس. وسمّي أهل الجنة ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ و﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾[الواقعة:٢٧]، وسمي أهل النار ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ و﴿أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ في [سورة الواقعة: ٤١]، فقوله: (أولئك أصحاب الميمنة، أي: أصحاب الكرامة عند الله)[3].

المسألة الثامنة عشر: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾

ونلحظ هنا مقابلة تعريف المؤمنين بالإيمان بتعريف الكفار بالكفر للتباعد بين الصنفين، كما جاء تعريفهم بالاسم الموصول بيان لعلة وصفهم بما وصفوا به من الذي في ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾.

ثم جاء بضمير الفصل ﴿هم﴾ مع الكفار دون المؤمنين، لما في ضمير الفصل من دلالة التأكيد، والمراد تأكيد نسبة صحبتهم للمشأمة لتحقير شأنهم، يقول ابن عاشور: (وضمير الفصل في قوله: ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾لتقوية الحكم وليس للقصر، إذ قد استفيد القصر من ذكر الجملة المضادة للتي قبلها وهي ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾)[4]، وبدا واضحًا تكرير لفظ الصحبة إشعار منه تعالى بطول المصاحبة مع الفريقين مع اختلاف أثر تلك الصحبة بين الخيرية من عدمها .

وظاهر ذكر ﴿الْمَشْأَمَةِ﴾ في مقابل ﴿الْمَيْمَنَةِ﴾ فيه محسن الطباق المشعر بتضاد الحالين، مما يؤكد الاختلاف المصيري بين الكرامة والمهانة، فإذا كانت الميمنة هي رمز الكرامة والنعيم، فالمشأمة هي منزلة الإهانة والعذاب، وقصدية الاتيان بالجهات (الميمنة، والمشأمة) دون ذكر الموقع الصريح (الجنة،

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٧٨ .
(٢) ينظر: عيون الأخبار: ١/ ١٩٢ .
(٣) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٧٨ .
(٤) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٧٨ .

والنار)، قد يكون مناسباً لسياق السورة في ذكر الهداية للنجدين، أي: الطريقين، فيكون طريق الميمنة هو طريق الخير، وطريق المشأمة هو طريق الشر.

المسألة التاسعة عشر: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾

ونلحظ من السياق مجيء حرف الجر (على) في قوله ﴿عَلَيْهِمْ ﴾للإشعار بالتمكن منهم، وبرز تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ ﴾على متعلقة ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ دون أن يقال: (نار مؤصدة عليهم) (للاهتمام بتعلق الغلق عليهم تعجيلاً للترهيب، وقد استتب بهذا التقديم رعاية الفواصل بالهاء ابتداء من قوله: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾)[1].

وذكر النار هنا ﴿نار﴾ لما فيها من دلالة العذاب، والألم، والإهانة، وهذا يتناسب مع التذكير بحقوق الضعفاء (اليتيم والمسكين) في مقابل ذكر المتعالين المتعاظمين في أول السورة المفتخرين بأموالهم التي تنعموا بها في الدنيا، فاليوم يعذبون بسبب ذلك في﴿نار﴾ بالتنكير لما فيها من عظم التهويل .

ثم أتى بمادة الإيصاد ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ يدل على شدة الحرق والعذاب، لما في النار من الحرارة واللهب، فإذا أغلقت عليها المنافذ كانت أشد حرارة وعذاباً، يقول الألوسي: (والمراد مغلقة أبوابها وإنما أغلقت لتشديد العذاب والعياذ بالله تعالى عليهم)[2].

كما أن ذكر الإيصاد خصوصاً دون الإغلاق مثلاً؛ لأن الإيصاد يدل في أصله على ضم شيء إلى شيء، وإطباق شيء على شيء[3].

ولا يفوتنا أن مجيء الكلمة بصيغة اسم المفعول ﴿مُؤصَدَة﴾ للتدليل على وجود موصد لها. وكذلك أنه: (صرح بوعيدهم ولم يصرح بوعد المؤمنين؛ لأنه الأنسب بما سيق له الكلام، والأوفق بالغرض والمرام، ولذا جيء بضمير الفصل معهم لإفادة الحصر، واعتبروا غيباً كأنهم بحيث لا يصلحون بوجه من الوجوه؛ لأن يكونوا مشاراً إليهم، ولم يسلك نحو هذا المسلك في الجملة الأولى التي في شأن المؤمنين)[4]، وذلك لختم السورة بهم وصفتهم المذمومة بكونهم أصحاب الشؤم .

(١) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٧٩ .
(٢) تفسير الألوسي: ٢٢/ ٤٦٠ .
(٣) انظر: مقاييس اللغة: ٤/ ١١٢ (وصد) .
(٤) تفسير الألوسي: ٢٢/ ٤٦٠ .

خلاصة:

بعد رحلة شيقة في كتاب الله تعالى خلصت دراستنا في سورة (البلد) وما أنطوت عليه من آيات شريفات تناولتها بالدراسة في أتون هذا الجهد الى مجموعة من النتائج، وهي :

١- أهمية الدراسات القرآنية لمتخصص اللغة العربية تكمن مقدرته على التمحيص والتفسير لكتاب الله تعالى، ومن ثم الوقوف على الغاية من البحث .

٢- تضمنت سورة البلد بيان عاقبة كلّ فريق من المؤمنين والكافرين بوصف الأول (أصحاب الميمنة) والآخر (أصحاب المشأمة) .

٣- سمة التكرار التي بدت ظاهرة في لفظ (البلد)، و(العقبة)، والمقابلات البلاغية بين (أصحاب الميمنة - أصحاب المشئمة) التي تعتبر الركيزة الأساس في فحواها .

٤- أظهرت المطالعة البلاغية والدلالية لسورة البلد شأن الإعجاز الإلهي في آياتها، وغاية فهم اللفظ التي أرادها الله تعالى من عباده .

٥- تضمنت الدراسة قضايا نحوية ولغوية وتعبيرية لمسايرة مقتضى النص، وفك رموز السياق القرآني .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

* الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي ت(٩١١ه)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٤م .

* بحر العلوم، نصر بن محمد السمرقندي ت (٣٧٣ه)، دار العلم للملايين - بيروت، ١٩٧٧م .

* البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي ت (٣٩٩ه)، تحقيق: د. وداد القاضي، دار صادر - بيروت، ط١، ١٩٨٨م .

* البلاغة العربية، عبد الرحمن حسن حبنكة، دار القلم - دمشق، ط١، ١٩٩٦م.

* التبيان في اقسام القرآن: محمد بن ابي بكر بن القيم الجوزية، دراسة وتحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت - لبنان .

* تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، أبي الأصبع العدواني ت (٦٥٤ه)، د. حنفي محمد شرف، الجمهورية المتحدة - لجنة إحياء التراث، (د.ت.ط) .

* التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ت: ١٣٩٣هـ، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط١/ ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٢م.
* تفسير البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بابي حيان الاندلسي، تحقيق: الشيخ عادل احمد عبد الموجود والشيخ علي احمد معوض وشارك في التحقيق: زكريا عبد المجيد النوقي واحمد التحولي الجمل، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .
* تفسير الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد الثعالبي ت (٨٧٥ه)، تحقيق: محمد علي عوض، وعادل أحمد، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ١٤١٨ه.
* تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري ت (٣١٠ه)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١، ٢٠٠٠م .
* الحور العين، نشوان بن سعيد اليمني ت (٥٧٣ه)، تحقيق: كمال مصطفى، ١٩٤٨م.
* ديوان عنترة بن أبي شداد، تحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب الاسلامي – بيروت، ١٩٦٤م.
* روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الالوسي ت:----هـ، تحقيق: علي عبد الديع عطية، ط١، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .
* زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين محمد الجوزي ت (٥٩٧ه)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط١، ١٤٢٢ه.
* الصناعتين، لأبي هلال العسكري ت (٣٩٥ه)، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت، ١٩٧٢م .
* صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، حسين بن محمد المهدي، وزارة الثقافة – الجمهورية اليمنية، ٢٠٠٩م .
* عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: محمد بن ابي بكر ايوب ابو عبدالله الزرعي، تحقيق: زكريا علي يوسف، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .
* علوم القرآن، نور الدين عتر، دار الصباح – دمشق، ط١، ١٩٩٣م .
* عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري ت (٢٧٦ه)، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٨ ه.
* لطائف الاشارات، عبد الكريم بن هوازن ت (٤٦٥ه)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، ط٣، (د.ت) .

* اللمحة في شرح الملحة، محمد بن الحسن ابن الصائغ ت (٧٢٠ه)، تحقيق: إبراهيم الصاعدي، عمادة البحث العلمي - المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٠٤م.

* معجم الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري ت (٣٩٣ه)، تحقيق: أحمد عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط٣، ١٩٨٦م .

* معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي ت(١٧٠ه)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي، مطبعة ومكتبة الهلال (د.ت) .

* معجم مقاييس اللغة: ابي الحسن احمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٦٩م.

* مقامات الزمخشري، جار الله الزمخشري ت (٥٣٨ه)، المطبعة العباسية - مصر، ط١، ١٣١٢ه .

* نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: للامام برهان الدين ابو الحسن ابراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠١ م .

* نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويري ت(٣٧٧ه)، دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة، ط١، ١٤٢٣ه .